الأنثربولوجيا البنيوية

د/ محمد سعيدي

جامعة تلمسان

تحاول الأستاذة و الباحثة جوليا كريستفا[1] في هدا المبحث[2]إبراز الأسس المعرفية والمنهجية التي اعتمدها كلود ليفي ستروس في دراسته لانساق القرابة[3]، كما تحاول ايضا ابراز مدى استفادة الانتروبولوجيا البنيوية من اطروحات الشكلانية الروسي والسيميائية واللسانية والفونولوجية من حيث الطرح الشكلي و المنهجي حيث تقول:

"بعد الأدب الذي أخضعه الشكلانيون الروس لتحليل شبه بنيوي مستلهمين في ذلك التطور الذي عرفته اللسانيات في منتصف قرننا.أصبحت الانتروبولوجيا الميدان الرئيسي الذي طبقت فيه منهجية قريبة من منهجية الليسانيات و بالتالي يمكننا القول أن الانتروبولوجيا البنيوية ودون أن تقدم نفسها بوضوح تام على أنها سيميائية ، و دون أيضا أن تتعاطى صراحة لتأملات حول طبيعة العلامة و استكشافها. فهي سيميائية. و ذلك لاعتبارها أن الظواهر الانتروبولوجية لغات يطبق عليها نفس الاجراء الوصفي الخاص باللسانيات.

أكيد أن الانتروبولوجيين منذ "موس" قد اهتموا بالمناهج اللسانية و ذلك من أجل استعارة معلومة اشتقاقية لغوية خاصة ، لتفسير الطقوس و الاساطير، غير أن فونولويا تروبتسكوى هي التي أثبتت أنها القوة المجددة لهذا التعامل، و أيضا لتصورها للغة باعتبارها نظاما للتواصل. و في سنة 1945، كتب كلود ليفي ستروس، و هوالمؤسس للانتروبولوجيا

---

[1] Julia Kristeva : Le langage cet inconnu-une initiation à la linguistique-Ed seuil.coll.points paris 1981.

[2] Julia Kristeva : L'anthtropologie structurale » in le langage cet inconnu-p.p 296-299

[3] ClaudeLevis strauss : structures elementaires de la parenté ED..PUF Paris 1948.

البنيوية القائمة على المنهجية الفونولوجية أنه " لا يمكن للفونولوجيا أن تتراجع عن الدور الذي قد تلعبه اتجاه العلوم الاجتماعية، فهو الدور نفسه بالتحديد الذي لعبته الفيزياء النووية بالنسبة لمجموع العلوم الدقيقة". لقد طبق فعلا الاجراء الفونولوجي في دراسة أنساق القرابة في المجتمعات المسماة بالبدائية.

قبل هدا اللقاء الذي تم بين الفونولوجيا و الانتروبولوجيا، كانت التفاصيل الاصطلاحية و قواعد الزواج، كل واحدة من جهتها. تنسب إلىهذه العادة أو إلى عادة أخرى، بدون أن تبرز فيها أية نسقية مظهرية، في حين أنه، و بالرغم من كونها حصيلة تفاعل عناصر تاريخية متنافرة. فان مجمل أنساق القرابة تشهد على تنظيم أكيد من حيث الفعل التزامني. وبالتالي قد نجد أنساقا أبوية أو انساقا أموية، يتم فيها تبادل النساء وفق نظام معين يتم فيه الزواج مع هذا القريب أو ذاك القريب من نفس القبيلة أو من قبيلة قريبة أو بعيدة، ويمنع الزواج بعضو آخر من أقارب أو بعضو آخر من قبيلة أخرى.ولمقاربة هذا التنظيم، يطرح كلود ليفي ستروس الوحدات الاساسية للنسق اللساني، و في الوقت نفسه لا بد و أن تحدد أيضا العلاقات الخاصة بهده العناصر داخل البنية. لقد كشفت الملاحظات الاثنو-منطقية أن الخؤولة (الاهمية الاساسية للخال) هي أبسط بنية قرابية يمكن تصورها. فهي تقوم على أربعة عناصر : الأخ، الأخت،الأب، الابن، متحدين فيها بينهم (كما هو الشان في الفونولوجا) وفق أطر زوجية ثنائية من التعارضات المترابطة (أخ/أخت، زوج/زوجة، أب/ابن، خال/ابن اخت)، حيث يوجد في كل جيل من الجيلين المقصودين دائما علاقة ايجابية و علاقة سلبية. و يعد محور المصاهرة (اخوة الزوجية) محورا حتميا و مركزيا تبنى حوله بنية القرابة.

لا يمكن بالتأكيد ، تأسيس مثل هده القواعد التي تذكرنا بالقواعد الفونولوجية إلا إذا اعتبرنا القرابة نسقا تواصليا شبيها باللغة. حيث أنها في نظر كلود ليفي ستروس الذي اعتبر أن رسالة نسق قرابة ما تمثل في نساء الجماعة التي تتنقل بين العشائر الخطية السلالية أو العائلية.(و ليس كما هو الحال في اللغة ذاتها، عن طريق مفردات الجماعة المتداولة بين الأفراد) ، مبدأ المماثلة بين أنساق القرابة و أنساق اللغة قائلا:

" قد يجد عالم الاجتماع نفسه في دراسته لانساق القرابة (و بدون شك في دراسته لمشاكل أخرى) في وضعية مماثلة من حيث الطرح الشكلي لوضعية الألسني الفونولوجي : إن عناصر القرابة تشبه الفونيمات، فهي عناصر دلالية. و لا تتحدد دلائليتها إلا باندماجها في نسق ما. فالأنساق القرابية مثلها مثل الأنساق الفونولوجية يبلورها العقل على مستوى الفكر اللاواعي. و في الاخير، فان تكرار أشكال قرابة وقواعد الزواج و سلوكات متشابهة و مقررة بين بعض الأنماط العائلية الخ... في مناطق مختلفة من العالم و في مجتمعات جد متباينة يجعل الاعتقاد في هذه الحالة كما هو في حالة أخرى، أن الظواهر القابلة للملاحظة هي وليدة تفاعل قوانين عامة لكنها خفية.

و بناءا على هدا، يمكن صياغة المشكل وفق الطريقة التالية: في نظام واقعي مخالف. ان ظواهر القرابة هي ظواهر من نفس نمط الظواهر اللسانية. و بالتالي هل يستطيع عالم الاجتماع وفق منهجية مماثلة من حيث الطرح الشكلي (أو حتى من حيث المضمون) للمنهجية التي اعتمدتها الفونولوجية أن يثمر علمه نفس التقدم الدي أثمرته العلوم الانسانية؟ بديهي ، أنه بناءا على هذا المبدأ الاساسي، لا بد و أن يحدد الأنتروبولوجيون البنيويون عناصر نسق ما. كما تحدد اللسانيات و بناءا على هدا التصور لقواعد القرابة باعتبارها قواعد التواصل الاجتماعي. خالف كلود ليفي ستروس الانتروبولوجيين الدين اعتادوا ترتيب هذه القواعد وفق تصنيفات متنافرة عرفت بأسماء مختلفة: حضر المحارم-أنماط الزواج التفاضلي، الخ...حيث اكتشف أنها تمثل كلها حالات تضمن تنقل النساء داخل الجماعة الاجتماعية و بالتالي فهي تعوض نسقا من العلاقات الدموية بيرلوجي الاصل بنسق اجتماعي تحالفي.

و إذا انطلقنا من هده الفرضية و عملنا بها فإنه لا يبقى لنا سوى الشروع في الدراسة الرياضية لكل أنماط تبادلات محتملة الوقوع بين الشركاء من أجل استنباط قواعد الزواج سارية المفعول في المجتمعات القائمة، و في الوقت نفسه ، يمكن أن نكتشف قواعد أخرى تتناسب مع مجتمعات ممكنة .

و في نهاية المطاف يمكننا أن نفهم وظيفتها و نمط عمليتها و العلاقة بين الاشكال المختلفة.
ليست مهمتنا هنا تحليل الدقة التي اعتمدها كلود ليفي ستروس في عرضه لانساق القرابة في بحثه و كتابه القيم و الجدير: "البنيات الإولية (الابتدائية) للقرابة " (1949) وإنما نريد فقط ان نبين كيف تحولت اشكالية اللغة بل كيف تحول علم خاص باللغة و هي الفونولوجيا الى رافعة لعلم جديد في ميدان آخر و هو الانثروبولوجيا البنيوية.
اذ تمكنه بهدا الشكل على اكتشاف القوانين الاساسية التي يرتكز عليها التواصل المجموعة الانسانية و بالتالي.. هل هدا يعني أن نظام اللغة هو نظام مماثل تماثلا قطعيا لنظام الثقافة؟ فإدا لم توجد أية علاقة بين النظاميين الاثنين. فان النشاط الانساني سيكون فوضى متنافرة لا تربط انشطته المختلفة اية علاقة. غير ان ما نلاحظه هو عكس دلك، حيث ؟أنه إذا تناسب النظامان تناسبا شاملا و مطلقا، فانه سيفرض نفسه بدون إثارة مشاكل.

نشير إلى أن كلود ليفي ستروس حين اثارته لهده التأملات فانه اختار موقفا معتدلا ولابد من التذكير به و بدون مبالغة لاولئك الدين يشتغلون من أجل تأسيس علم جديد: السيمائية كعلم يدرس قوانين التسيير الرمزي: "قد يحتمل أن تكتشف بعض الترابطات لبعض الأوجه و على بعض المستويات، و المقصود بالنسبة لنا هو ايجاد ما هي هده الاوجه وما هي هده المستويات. و في هدا الصدد فان احداث تعاون ممكن بين الانتروبولوجيين واللسانيين للقيام بهده المهمة، غير أن المستفيد الرئيسي من اكتشافاتنا المحتملة لن تكون لا الانتروبولوجيا و لا حتى اللسانيات كما نتصورهما إذ قد تفيد هده الاكتشافات علما قديما جدا و جديدا جدا في نفس الوقت: و هو الانتروبولوجيا في أوسع معانيها، بمعنى معرفة الانسان مضاف اليها مختلف المناهج و مختلف التخصصات العلمية، و قد تكشف لنا في يوم ما الطاقات البسرية التي تحرك هدا الضيف ، الحاضر في نقاشاتنا دون ان يكون مدعوا لدلك : ألا هو العقل البشري.